الأكاديمية العربية الدولية
Arab International Academy

الأبستيمولوجيا

Epistemology

د . لينا الخطيب

المحاور

- المخرجات المتوقعة من الدرس
- المقدمة
- تعريف الأبيستيمولوجيا
- طبيعة المعرفة عند الواقعيين
- طبيعة المعرفة عند البراجماتيين
- طبيعة المعرفة عند المثاليين
- طبيعة المعرفة عند التجريبيين
- مصدر المعرفة عند (العقليين – التجريبيين – النقديين – المتصوفة الإعتقاديون و الشكاك)

المخرجات المتوقعة من الدرس

بعد إتمام هذا المقرر، يتُوقع أن يكون الطالب قادرًا على:

١ - القدرة على التمييز بين النظريات الإبستيمولوجيا الكبرى مثل العقلانية والتجريبية

٢ - تحليل المفاهيم المرتبطة بالمعرفة كالتبرير واليقين والاعتقاد

٣ - نقد المواقف الفلسفية التقليدية والمعاصرة في مجال المعرفة

٤ - تطوير رؤية فلسفية شخصية تجاه طبيعة المعرفة وأسئلتها

المقدمة

تحليل «المعرفة» الإنسانية من شتى نواحيها، يوشك أن يكون هو الشغل الشاغل للفلسفة منذ القرن السابع عشر حتى اليوم، أو هو ـ على الأقل ـ أهم مشكلة تناولتها الفلسفة في هذه الفترة من تاريخها، ولو تتبع هذه المشكلة مؤرخ ليرى كيف نشأت، ثم كيف نمت وتطورت وتعددت فيها الآراء وتشعبت المذاهب؛ لوجد نفسه متتبعًا لتاريخ الفلسفة في عصرها الحديث.

المقدمة

لكنني في هذا الكتاب لم أتناول المشكلة على أساس تاريخي يجعل الأسبق منها في الظهور الزمني أسبق كذلك في تناوله بالبحث، بل تناولتها على أساس الموضوعات المختلفة التي تعرضت لها. وقد كان كل موضوع منها بمثابة سؤال ألقاه الفلاسفة على أنفسهم ثم حاولوا الإجابة عنه كل حسب مذهبه فما طبيعة المعرفة؟ وما مصدرها؟ وما حدودها ؟

تعريف الأبستيمولوجيا

هي نظرية المعرفة العلمية .....وهي الدراسة الفلسفية لطبيعة و أصل وحدود المعرفة الإنسانية وهي مشتقة من الكلمة اليونانية ابيستيم التي تعني المعرفة .....

وهي دراسة لطبيعة المعرفة الشرح التبرير ..وعقلانية الاعتقاد أو الإيمان

نظرية المعرفة

فنظرية المعرفة عند الفيلسوف هي رأيه في تفسير المعرفة أيا ما كانت الحقيقة . المعروفة؛ فقد تكون الحقيقة المعروفة هي أن هذه الورقة التي أمامي لونها أبيض، أو أن القاهرة تقع على خط عرض ٣٠ ، أو أن شعاع الضوء إذا سقط على سطح مستو لامع فإن زاوية سقوطه تساوي زاوية انعكاسه، أو أن سبعة مضروبة في ستة تساوي اثنين وأربعين. لكن هذه الحقائق على اختلافها وتنوعها كلها تشترك في كونها أجزاء مما أعرف

نظرية المعرفة

وطبيعي أن يختلف الفلاسفة في الرأي عندما يُدْلُون بآرائهم في طبيعة «المعرفة» ومصدرها وحدودها وسنحاول فيما يلي من صفحات أن نوجز لك أهم المشكلات التي تنشب عند النظر في تحليل «المعرفة» وتفسيرها، وأهم الاتجاهات الفكرية إزاء تلك المشكلات. وأهم المسائل التي يحاول الفيلسوف أن يعالجها في مشكلة المعرفة يمكن حصرها في هذه الأسئلة الثلاثة

(١) ما طبيعة المعرفة بصفة عامة، بغض النظر عن نوع الحقيقة المعروفة؟

نظرية المعرفة

٢) ما هو المصدر الذي يستقي منه الإنسان معرفته؟

(٣) هل في مُستطاع الإنسان أن يتناول بمعرفته كل شيء بغير تحديد؟ أم أن لوسعه حدودا ؟

وستفرد لكل من هذه الأسئلة الثلاثة بابا نتتبع فيه الإجابات المختلفة التي أجاب بها الفلاسفة عن السؤال

كل حسب اتجاهه ومذهبه .....

طبيعة المعرفة عند الواقعيين

الواقعية الساذجة

السؤال المطروح أمامنا الآن هو هذا ما هي المعرفة؟ ما تحليل الموقف الذي أقول فيه إنني «أعرف كذا وكذا؟ وعن هذا السؤال يجيب الإنسان المثقف العادي - مسوقا إلى جوابه بإدراكه الفطري - قائلا: «المعرفة» هي صورة» لما يجري في العالم من وقائع وأحداث؛ فالحقائق الخارجية هي بمثابة الأصل، ومعرفتي إياها بمثابة الصورة، فإذا نظرت إلى مكتبي هذا وقلت عنه إنه مستطيل السطح أو إنه بني اللون؛ فذلك لأن هناك خارج نفسي شكلا مستطيلا ولونا بنيًا لا دخل لي في حدوثهما، وكل ما فعلته إزاءهما هو أنني نظرت إليهما فعرفتهما» بمعنى أنهما قد ارتسما» في ذهني كما هما في عالم الواقع.

طبيعة المعرفة عند الواقعيين

ويترتب على هذا الرأي في المعرفة نتيجة هي أيضًا مما يسلّم به الإنسان العادي تسليما لا يجد فيه مشقة ولا عُسرا؛ لأنها كذلك مما يهدي إليه الإدراك الفطري، وهي أن العالم الخارجي موجود بغض النظر عن وجودي؛ إذ هو موجود مستقلا عن معرفتي إياه؛ فالمصباح المضيء على مكتبي قائم هناك، سواء اتجهت إليه ببصري لأراه أو أقفلت عيني بحيث لا تراه، فالأمر ها هنا هو بذاته الأمر في آلة التصوير وما تصوره؛ فالشيء المصور موجود سواء اعترضته آلة التصوير لتلتقط صورته أو لم تعترضه. بعبارة أخرى: لا يتوقف وجود الشيء على كوني أعرفه،

طبيعة المعرفة عند الواقعيين

وإن أحدثت هذه المعرفة تغيرا ما؛ فالتغير إنما يطرأ على الشخص العارف لا على الشيء المعروف؛ إذ يصبح ذلك الشخص بعد معرفته تلك عالما بما كان يجهله قبلها، فإذا لم أكن قد رأيتُ معابد الأقصر قبل الآن، ثم ذهبت إليها ورأيتها فليست معابد الأقصر هي التي حدث لها التغير، إنما هو أنا الذي علم بعد جهل فتغير بهذا العلم الجديد كثيرًا أو قليلا.

طبيعة المعرفة عند الواقعيين

والنتيجة الثانية التي تترتب على هذا الرأي في المعرفة هي أن العالم قوامه كثرة من أشياء، وليس هو بالحقيقة الواحدة التي تخلو من التعدد، فما دام العالم ـ كما أعرفه ـ مؤلفًا من كائنات شتى أشجار وأنهار وأحجار وأجرام في السماء وأفراد من إنسان وحيوان على الأرض، ثم ما دام هذا الذي أعرفه عن العالم هو صورة له، إذن فالعالم في حقيقته هو هذه الكثرة في الأشياء والوقائع والحوادث التي قد تتصل حينا وتنفصل حينًا، وإذا كانت هذه هي حقيقة الأمر فيه كان خير سبيل إلى معرفته أدق معرفة هو تحليله إلى مقوماته ومكوناته، فحلّل الطبيعة إلى عناصرها، وانظر إلى هذه العناصر كيف تختلف وكيف تأتلف ينكشف لك الستر عن سرها الدفين، حللها تظهر لك

طبيعة المعرفة عند الواقعيين

ويتصل بالاعتراض الذي أسلفناه اعتراض آخر وهو أنه لو كانت معرفتي بشيء ما صورة لذلك الشيء؛ لَلَزِمَ أن تدوم تلك المعرفة على حالة واحدة ما دام الشيء المعروف هو هو محتفظا بذاتيته. مثال ذلك: أنه لو كانت معرفتي لهذه المنضدة التي أمامي صورة تطابق المنضدة؛ لَتَحتَّم أن تظل الصورة على حالة واحدة مهما تغيرت وجهة نظري إلى محتفظة بذاتيتها، لكني ألاحظ المنضدة، ما دامت المنضدة وهي الشيء المصور أن إدراكي للمنضدة يتغير كلما غيرت موضعي منها، فاستطالة سطحها لا تظل

طبيعة المعرفة عند الواقعيين

إذا ألقيت على «لوك» السؤال المطروح أمامنا الآن، وهو ما المعرفة في طبيعتها ؟ ماذا أعني على وجه الدقة حين أنظر إلى برتقالة - مثلاً - وأقول: إنني «أعرف أن هذه برتقالة؟ إذا كانت معرفتي هذه بالبرتقالة هي علاقة قائمة بيني وبين شيء أدركه، فما نوع هذه العلاقة؟ أهي علاقة التطابق التي تقوم بين الصورة والشيء المصور كما يقول أنصار الواقعية الساذجة؟

طبيعة المعرفة عند الواقعيين

ليست هي علاقة التطابق التام الشامل، هكذا يجيبك «لوك» عن سؤالك؛ ذلك أن صفات البرتقالة ليست كلها على درجة سواء، بحيث تكون معرفتك إياها من نوع واحد وطبيعة واحدة، فلو أحصيت صفات البرتقالة: شكلها الكُري ولونها الأصفر وطعمها إلخ؛ وجدت أن هذه الصفات تقع في قسمين مختلفين، فبعضها متصل بالبرتقالة اتصالا يستحيل انفصاله، وأما بعضها الآخر فليس في الحقيقة قائمًا في البرتقالة ذاتها، بل نشأ حين اتصلت البرتقالة بحاسة من حواسك. ويطلق «لوك» على النوع الأول اسم الصفات الأولية وعلى النوع الثاني اسم الصفات الثانوية».

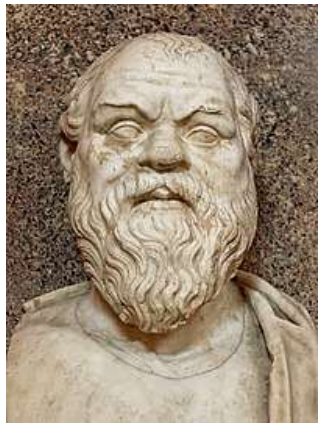

طبيعة المعرفة عند الواقعيين

ففي اللون والصوت والطعم لا تكون معرفتنا صورة للواقع، إنما هي صورة محورة فكل ما يجيء إلينا من الشيء الخارجي مؤثرات خاصة، ثم تُحدِث هذه المؤثرات فينا آثارًا لا شبه بينها وبين المؤثر. مثل ذلك مثل الشمس تبعث حرارتها إلى قطعة الشمع فتذيبها، فلا يكون الأثر الذي هو السيولة الحادثة في الشمع شبيها بالمؤثر الذي هو قرص الشمس ولو كانت قطعة الشمع لتتكلم لقالت عن السيولة التي تحدث فيها إنها الشمس، و لظننت أن الصورة التي حدثت - وهي السيولة - شبيهة بالشيء المحدث وهو الشمس.

الصفات الأولية والصفات الثانوية كلتاهما تجيء إلينا من الشيء الخارجي عن طريق حواسنا، لكن الأولى صورة مطابقة للواقع، وأما الثانية فيتم تكوينها داخلنا بحيث لا تكون صورة مطابقة للواقع، وإن تكن دالة عليه. ومن مجموعة المحصول الذي أحصله

طبيعة المعرفة عند الواقعيين

من هذه الصفات وتلك يأخذ عقلي في تركيب الأفكار، كأن يجمع اللون الذي يأتيه من البرتقالة إلى طعمها وشكلها وملمسها وصوتها، إذ تتدحرج على الأرض، يجمع هذه الأشتات التي ذهبت إليه من طرق مختلفة، فهذه الصفة جاءت من العين وتلك من الأذن وثالثة من الأنف ورابعة من الأصابع وهكذا، يجمع العقل هذه الأشتات في صورة واحدة على لوحته، فتكون هي فكرة البرتقالة عنده، حتى إذا ما اجتمعت لديه صور عدة لعدد من برتقالات قارن بينها واستخرج منها صورة عامة تنطبق على أية برتقالة، وإن تكن مختلفة بعض الشيء عن كل برتقالة على حدة.

طبيعة المعرفة عند الواقعيين

وشكل نعرف «جوهره الثابت الذي يجعله هو ما هو.

وبعد أن تتركب في أذهاننا صور للأشياء، لكل شيء جوهره وأعراضه، فهذه منضدة وهذا مصباح، وهذه ورقة، وذلك قلم .... إلخ، لا تظل هذه الصور في الذهن فرادى متفرقات لا شأن للواحدة بالأخرى، بل ترتبط الصور الذهنية، أو قل ترتبط معارفنا عن الأشياء بروابط وعلاقات فشيئان يرتبطان بعلاقة السببية، وشيئان يرتبطان بعلاقة التجاور وشيئان يرتبطان يكون الواحد منهما حدث قبل الآخر في الزمن أو بعده وهكذا؛ وبهذا تنشأ مجموعة ثالثة من معارفنا، وهي العلاقات التي تربط أفكارنا عن الأشياء بعضها

طبيعة المعرفة عند الواقعيين

هكذا يحلل «جون لوك معرفة الإنسان إلى أفكار بسيطة هي أحاسيسنا التي تأتي عن طريق حاسة واحدة كاللون حين يأتي عن طريق البصر، أو تأتي عن طريق حاستين كالشكل حين يأتي عن طريق البصر واللمس معا؛ ثم إلى أفكار مركبة يركبها العقل بفاعليته من تلك الأفكار البسيطة، وهذه الأفكار المركبة إما أن تكون فكرة عن الشيء في صفاته العارضة أو فكرة عن الشيء في جوهره الثابت أو فكرة عن العلاقات التي تربط شيئًا بشيء، وهذه المعرفة ـ على اختلاف أنواعها من بسيطة ومركبة ـ منها ما يكون صورة مطابقة للواقع

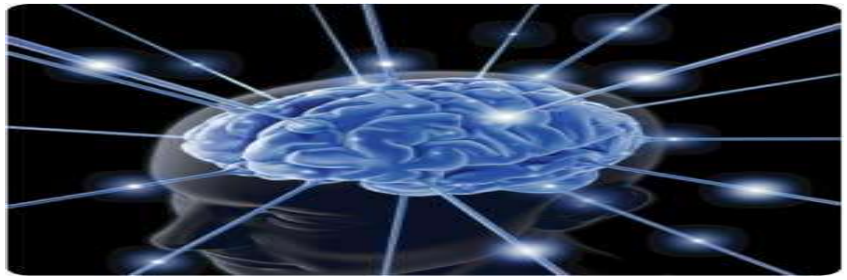

طبيعة المعرفة عند الواقعيين

ومنها ما لا يكون بينه وبين الواقع شبه وإن يكن دالا عليه وتلك هي الواقعية النقدية التي تجعل الواقع مصدر معلوماتنا، لكنها لا تتسرع بوصف معرفتنا كلها بوصف واحد، كأنها كلها من طبيعة واحدة، بل تحلل أنواع المعرفة لترى ماذا يتشابه في أجزائها، وماذا يختلف، وماذا يصور الأشياء الخارجية تصوير الشبيه لشبيهه، وماذا لا يصورها ؟

طبيعة المعرفة عند البراجماتيين

المعرفة على مذهب الواقعيين لا تتضمن سلوكا معينا يقوم به الشخص العارف، فما دام العقل عندهم مرآة تنطبع عليها آثار الأشياء الخارجية، وبمقدار ما يتزاحم في المرآة من صور تزداد خبرات الشخص ومعارفه؛ إذن فأمر الشخص العارف كأمر المرأة التي تتلقى صور الأشياء فلا تحركها تلك الصور خطوة إلى يمين أو يسار. ومن هنا كان الفلاسفة يفرقون بين الفكر والعمل، فيقولون إن رجل الفكر قد لا يكون رجلًا عمليا، ورجل العمل قد لا يكون صاحب فكر، إيمانا منهم بأن المعرفة شيء لا يستدعي بالضرورة سلوكا معينا في الحياة العملية.

طبيعة المعرفة عند البراجماتيين

وجاء المذهب البراجماتي - أو المذهب العملي - في عصرنا الحديث، فغير النظرة

إلى طبيعة المعرفة بحيث لم يجعلها مجرد تصوير لعالم الواقع كما ظن الواقعيون بل جعلها أداة للسلوك العملي؛ أي أن الفكرة من أفكارنا هي بمثابة خطة يمكن الاهتداء بها في القيام بعمل معين، والفكرة التي لا تهدي إلى عمل يمكن أداؤه ليست فكرة، بل ليست شيئًا على الإطلاق، إلا أن تكون وهما في رأس صاحبها.

طبيعة المعرفة عند البراجماتيين

لو وقفت عند مفترق الطرق ورأيت النور الأحمر في مصباح المرور ثم قلت: إني أعرف أن هذا اللون أحمر، فما معنى «معرفتي هذه ؟ أجابك الواقعيون بأن معناها هو أن في رأسك صورة للمواقع - سواء كانت صورة مطابقة للواقع أو غير مطابقة - أما البراجماتي فيقول إنها لا تكون معرفة» إلا إذا هَدَتك إلى السلوك الذي تسلكه عند رؤيتك النور الأحمر، فتعرف إلى أي اتجاه يجوز السير وفي أي اتجاه لا يجوز أما مجرد ارتسام صورة لون أحمر على صفحة ذهنك فليس معرفة» في قليل أو كثير وهكذا تكون الفكرة فكرة إذا كان فيها ما يدل على نوع السلوك الناجح

طبيعة المعرفة عند البراجماتيين

هل تقول عن الطبيب إنه يعرف شيئًا من علم الطب إذا لم يكن قادرا على ترجمة معرفته إلى عمل ناجح إزاء مريضه؟ وهل تقول عن المهندس الميكانيكي إنه يعرف شيئًا عن عدة السيارة إذا كان عاجزا عن عمل إزاءها حين يصيبها العطب حتى تعود إلى الحركة والسير .....

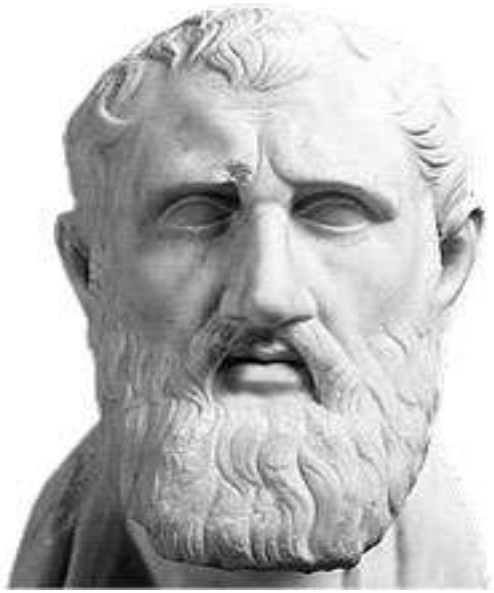

طبيعة المعرفة عند البراجماتيين

الحركة والسير ؟ هل تقول عن نفسك إنك تعرف الطريق إلى المحطة إذا لم تكن قادرا على رسم خطة للسير بحيث تنتهي بك إلى هناك إذا أردت ذلك؟ وهكذا قُلْ في كل ضروب المعرفة، إنها لا تكون معرفة إلا إذا كانت في حقيقتها خطة مرسومة لعمل ناجح يؤدى في عالم الأشياء فيغيره على النحو الذي يجعله أكثر ملاءمة لحياة الإنسان الفكرة التي لا تساعد صاحبها على تغيير أوضاع الأشياء من حوله تغييرا يؤدي إلى ارتياحه ليست من الفكر في شيء، إنه لا فرق بين الفكر والعمل؛ لأن الفكر في حقيقته وفي طبيعته هو برنامج للعمل

طبيعة المعرفة عند البراجماتيين

ومن أكثر الفلاسفة توضيحا لهذا المذهب البراجماتي أو العملي) في تفسير المعرفة الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس الذي يعده العالم ممثلا للفلسفة الأمريكية الحديثة. وأهم ما نهتم له الآن من آرائه نظريته في معنى الكلام؛ لأننا ما دمنا نعبر عن «معرفتنا» في عبارات كلامية، فإن تحليلنا وتحديدنا لماذا عسى أن يكون معنى العبارة التي نقولها هو في الوقت نفسه تحليل وتحديد لطبيعة ما لدينا من معرفة.

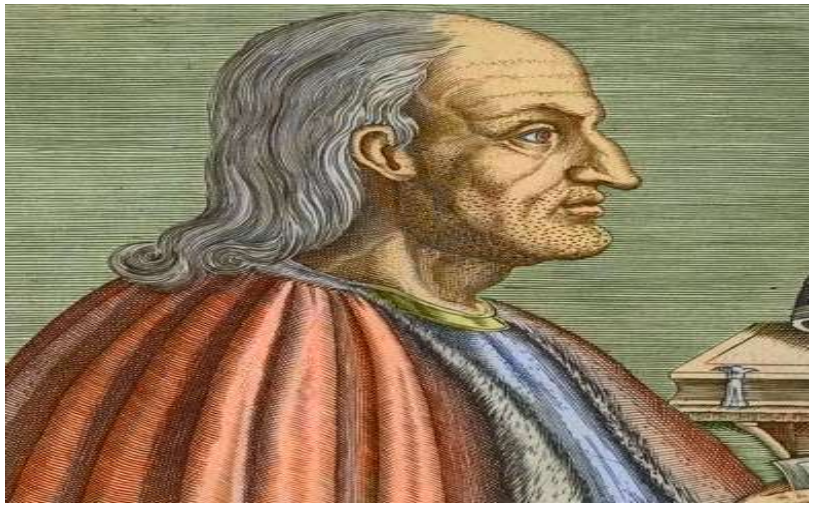

طبيعة المعرفة عند البراجماتيين

خذ لذلك مثلا قولي «قد نفد المداد من قلمي فما المعنى الذي تفهمه من هذه العبارة؟ ما المعرفة التي تحصل منها ؟ يجيب الفيلسوف البراجماتي عن ذلك بقوله إنني لو أحصيت ما أتوقعه من نتائج في خبرتي العملية لهذه العبارة فقد فهمتها وعرفتها فمثلا أتوقع ألا يكتب القلم شيئًا لو خططت به على الورق، وأتوقع أن يجتذب إلى داخله قطرات من المداد لو أردت أن أملأه وهكذا. خذ اخذ مثلا آخر قولي قد انطفأت النار في غليوني»، فماذا تفهم من هذه العبارة؟ أفهم العبارة لو عرفت نتائجها،

طبيعة المعرفة عند البراجماتيين

وليم جيمس يبدي رأيه في العبارة التي تحدثنا عن وجود الله فيقول إنها ذات معنى، على أساس نظريته، على الرغم من أنني لن أحس لوجوده إحساسًا بواحدة من حواسي كالعين أو الأذن أو الأصابع؛ ذلك لأن هذا الاعتقاد عند الناس له آثاره الكثيرة في وجهة نظرهم إلى الحياة؛ فهو قد يسبب لهم التفاؤل والأمل وغير ذلك مما يؤثر تأثيرًا مباشرا في طريقة العيش التي يحيونها.

طبيعة المعرفة عند البراجماتيين

وكذلك من النتائج التي تترتب على النظرية البراجماتية فتجعلها بعيدة الاختلاف عن النظرية الواقعية أن صدق المعرفة درجات؛ أي أنك قد تجد فكرتين كلتاهما صادق، لكن واحدة أصدق من الأخرى؛ لأنها أنجح منها في مجال السلوك العملي، مع أنه لو كان رأي الواقعيين في المعرفة صوابًا - أي أنه لو كانت المعرفة هي صورة للواقع تُرسم على

طبيعة المعرفة عند البراجماتيين

والخلاصة هي أن المعرفة عند البراجماتيين ليست نسخة من أصل هو الحقيقة الخارجية، بل المعرفة بيان لما يمكن أن يكون عليه ساكنا في حياتنا العملية، بحيث نحقق رضى النفس لأكثر عدد ممكن من الناس.

وبالطبع لا تخلو هذه النظرية البراجماتية من أوجه النقص، فليس من العسير أن تجد أمثلة من معارفنا لا تفسرها هذه النظرية تفسيرا مقبولا. خذ لذلك هذا المثل: إذا قلت لي إن كولمبس قد عبر المحيط الأطلسي سنة ١٤٩٢م،

طبيعة المعرفة عند البراجماتيين

وأردت أن أعرف إن كان قولك هو الصواب، فبناءً على النظرية البراجماتية ينبغي أن أنظر في نتائج هذا القول لا في أسبابه فإن وجدتها نتائج أدعى إلى السلوك الناجح كان القول صحيحًا . لكن ما الفرق من حيث النتائج العملية بين من يقول ذلك، ومن يقول عن رحلة كولمبس إنها وقعت سنة ١٤٩١ أو سنة ١٤٩٣م؟ إنه من العسير أن نتبين فرقًا في النتائج، اللهم إلا أن القائل بالعبارة الأولى لو كان طالبا في امتحان فإنه يجتاز امتحانه بنجاح، على خلاف القائل بالعبارة الثانية أو الثالثة.

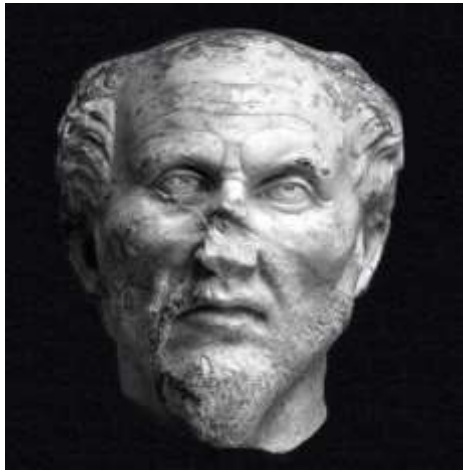

طبيعة المعرفة عند البراجماتيين

إننا لو جعلنا حسن النتائج المترتبة على الفكرة هو مقياس صدقها؛ لوجدنا عبارات مقطوعا ببطلانها صحيحة على هذا المقياس، فمثلا قولنا عن سانتا كلوز إنه موجود سانتا كلوز شخص خيالي يقال للأطفال في عيد الميلاد المسيحي: إنه يزورهم وهم نيام فيترك لهم هدايا العيد يكون قولاً صحيحًا إذا قيس بنتائجه الطيبة على أنفس الأطفال. وآبائهم جميعا.

طبيعة المعرفة عند المثاليين

الواقعية والبراجماتية كلتاهما ـ كما رأيت ـ تفسر طبيعة المعرفة بالاستناد إلى شيء واقع خارج العقل على اختلاف بينهما في نوع العلاقة التي تقوم بين العقل العارف والشيء المعروف، فبينما يجعلها الواقعيون علاقة الصورة بأصلها يجعلها البراجماتيون علاقة سلوكية؛ أي يجعلون المعرفة ـ أيا كان نوعها ـ خطة يتبعها الشخص العارف في سلوكه وفي معالجته للأشياء الخارجية.

طبيعة المعرفة عند المثاليين

لكننا الآن إزاء مذهب يختلف عن الواقعية والبراجماتية معا اختلافا يتناول الأساس فلئن اعترف هذان المذهبان بوجود عالم خارجي من أشياء، وجودا مستقلا عن الإنسان بحيث يظل موجودًا سواء وجد فيه الإنسان الذي يعرفه أو لم يوجد، ترى المذهب المثالي الذي نحن الآن بصدد عرضه فيما يختص بطبيعة المعرفة - لا يعترف بوجود شيء خارج العقل، فلا وجود إلا لما يدركه عقل ما، وما ليس يدركه عقل ما يستحيل أن يكون موجودا؛ وإذن فمعرفة الشيء ووجوده جانبان لحقيقة واحدة. وبذلك يكون جواب السؤال المطروح أمامنا

طبيعة المعرفة عند المثاليين

وهو: «ما طبيعة المعرفة؟ هو طبيعة المعرفة هي نفسها طبيعة الوجود»، لا فرق بين الشيء باعتباره كائنا من كائنات العالم وبينه باعتباره مدركا من مدركات العقل، فمعرفتي لهذا المصباح الذي أمامي الآن هي نفسها المصباح أي أنه ليس هناك أصل في الخارج وصورة عقلية في الداخل بل كل الموجود عن المصباح هو الصورة العقلية وحدها. حلل ما يحدث عند رؤيتي للمصباح - حتى من وجهة نظر الواقعيين أنفسهم - تفهم الرأي الذي يذهب إليه المثاليون تنتقل موجات ضوئية إلى شبكية عيني، فتتأثر هذه الشبكية لهذا المؤثر الطارئ، وتنتقل منها اهتزازات دقيقة خلال العصب البصري إلى المخ حيث مركز الإبصار، وهناك يحدث في خلايا المخ من الحركة ما أسميه أنا مصباحا». وهنا يقول الواقعيون إن هذه الحركة العصبية التي حدثت داخل

طبيعة المعرفة عند المثاليين

هكذا يلتقي المثاليون في المبدأ الذي يطابق بين المعرفة والوجود فيجعلها شيئًا واحدا، لكنهم يختلفون فيما ينتهون إليه من تفصيلات وسنسوق لك مثلا واحدا منهم؛ هو هيجل» الذي يُعد يعد من أعظم الفلاسفة المثاليين في العصور الحديثة، وسنحصر حديثنا عنه في موضوعنا فقط وهو طبيعة المعرفة

طبيعة المعرفة عند المثاليين

المهمة الرئيسية للمعرفة هي أن تفسر لنا العالم، بحيث نهتدي خلال ما نعرفه إلى حقيقة هذا العالم الذي نعيش فيه، لكن التفسير» نفسه ما معناه؟ متى تقول عن حقيقة يراد تفسيرها إن هذا التفسير قد تم ولم تعد الحقيقة المشار إليها بحاجة إلى تفسير؟

التفسير أو التعليل هو باختصار نسبة الشيء المراد تفسيره إلى حقيقة أعم منه تشمله وتحتويه، فإن كانت هذه الحقيقة الأعم هي نفسها بحاجة إلى تعليل نسبتها إلى ما هو أعم منها ويشملها مع غيرها، وهكذا دَوَالَيْكَ حتى ينتهي الصعود إلى مبدأ أول يفسر نفسه ويفسر كل شيء يترتب عليه، ولو استطعنا أن نهتدي إلى هذا المبدأ الأول بالنسبة للكون كله أمكننا بذلك أن نفسر الكون ونفهمه.

طبيعة المعرفة عند المثاليين

هذه المعاني الكلية هي شروط لا بد أن تتوافر قبل أن تتم معرفة كائنة ما كانت. وهي نوعان: فمنها معان قوامها الصفات التي يمكن إدراكها بالحواس كاللون الأصفر مثلا: ولذلك نجد من الفلاسفة المثاليين أنفسهم من يقول إن أمثال هذه المعاني الكلية تتكون بعد الخبرة الحسية بالأشياء التي تحيط بنا، لكن هنالك معاني كلية أخرى لا مندوحة لنا عن افتراض وجودها في العقل قبل أي خبرة حسية لأنها شرط ضروري لكل معرفة، فقبل أن تبدأ في خبرتك الحسية بالأشياء لا بد أن تعرف . مثلا ـ أن الشيء، أي شيء يستحيل أن يكون في مكانين في وقت واحد.

طبيعة المعرفة عند المثاليين

هذا النوع الثاني من المعاني الكلية خال من الصفات الحسية وهو لذلك فكر خالص وهو الذي أراد هيجل أن يبحث عنه لأنه اعتقد أنه هو المبدأ الأول الذي يفسر كل معرفة إذ لا تكون معرفة بغيره، وهذا النوع من المعاني الكلية هو الذي يصطلح الفلاسفة الغلاء على تسميته بالمقولات أو إن شئت فقل من المقولات إنها القوالب التي لا بد من وجودها

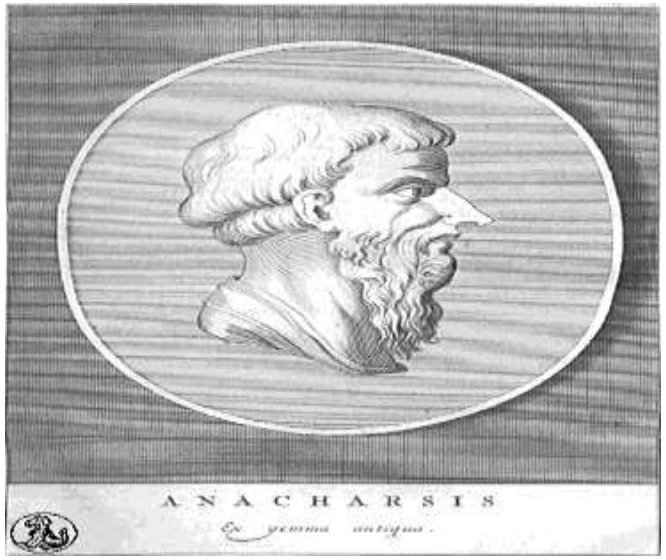

طبيعة المعرفة عند التجريبيين

ألقينا على أنفسنا في الباب الأول سؤالاً عن طبيعة المعرفة ما هي؟ وتتبعنا الإجابة عند المذاهب المختلفة، وها نحن أولاءِ نُلقي عن «المعرفة» سؤالا ثانيا، هو: ما مصدرها؟ ما وسيلتنا إليها ؟ لتكن طبيعتها ما تكون لتكن كما قال عنها الواقعيون من أنها صورة العالم الواقع، أو كما قال عنها البراجماتيون من أنها طريقة للسلوك في دنيا الواقع، أو كما قال عنها المثاليون من أنها مدركات عقلية تكون هي الفكر وهي الأشياء في آن معا، لتكن ما تكون في طبيعتها، ولكن سؤالنا الآن هو من أي السبل جاءتنا؟ ومن أي مصدر استقيناها ؟

طبيعة المعرفة عند التجريبيين

جيب التجريبيون بقولهم: إن مصدر معارفنا جميعًا هو الخبرة الحسية، ووسيلتها هي الحواس. عرفت البرتقالة ـ مثلاً ـ لأني رأيت لونها بالعين، وذقت طعمها بالسان وشممت رائحتها بالأنف، ولمست سطحها بالأصابع فعرفت استدارتها ومدى صلابتها وهكذا، وما البرتقالة عندي إلا هذه الإدراكات الحسية جميعًا، ولو أقفلت أبواب الحواس واحدًا بعد واحد؛ لامتنعت علي المعرفة جانبًا بعد جانب حتى تمتنع المعرفة كلها إذا أقفلت الأبواب كلها.

طبيعة المعرفة عند التجريبيين

وسنضرب لك مثلا لهذا الرأي «ديفيد هيوم»؛ لأنه تتبع الفكرة إلى نتائجها في جلاء و وضوح

تتألف معرفة الإنسان من الإحساسات التي يتلقاها عن طريق حواسه المختلفة، فها أنا ذا أشْخَصُ ببصري إلى المكتب الذي أمامي فأتلقى صورة لونية.....

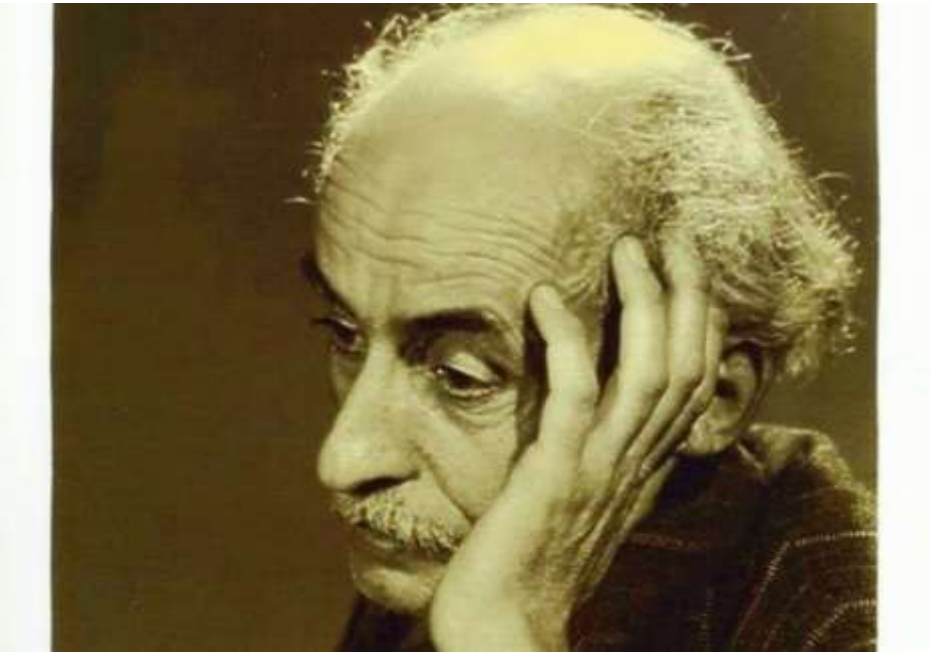

مصدر المعرفة عند التجريبيين

أقفلت عيني فإني سأظل محتفظاً بهذه الصورة اللونية التي كنت تلقيتها وأنا شاخص ببصري. غير أن الصورة في الحالة الثانية وإن احتفظت بما كانت عليه في الحالة الأولى من تفصيلات إلا أنها أقل منها وضوحًا. ويطلق (هيوم) على الصورة التي تلقيتها في الحالة الأولى اسم «الأثر الحسي»، ويُطلق على الصورة التي احتفظت بها في الحالة الثانية اسم الفكرة». وهكذا يقسم مدركاتنا قسمين أساسيين هما: الآثار الحسية» و«الأفكار»، وما «الأفكار» إلا الآثار الحسية نفسها ولكن بعد غياب المؤثرات التي أحدثتها؛

مصدر المعرفة عند التجريبيين

لكننا نعود فنكرر أنني مهما أنعمت النظر فيما يجري في الطبيعة من حولي فلن أشاهد إلا ظواهر تقع معا أو تقع متتابعة، ولن أشاهد بينها «ضرورة» تحتم أن يكون وقوعها على هذا النحو الذي وقعت عليه، فقد ألاحظ اتجاه الرياح وألاحظ سقوط المطر، لكني لا ألاحظ بينهما «ضرورة» تجعل سقوط المطر محتوما لو هبت الرياح في اتجاهها ذاك؛ إذن فلنا أن نسأل: ما الذي أغرى الإنسان بالتبرع من عنده بهذه العلاقة السببية يربط بها الحوادث إذا كانت لم تكن بين انطباعاته الحسية؟

مصدر المعرفة عند التجريبيين

إن حقيقة الأمر لا تزيد على أن الإنسان يتعود» رؤية الحادثة «أ» مرتبطة بالحادثة «ب»؛ لأنه يراهما متجاورتين دائما تجاورًا زمنيا، فكلما حدثت «أ» توقع أن تحدث «ب» كذلك كما فعلت في المرات السابقة، وقد يكون مصيبًا في توقعه لحدوث «ب»؛ لأن الحوادث إذا اطرد تلازمها فيما مضى فالأرجح أن تظل على اطرادها في المستقبل كذلك، لكن وجه الخطأ هو أن يظن أن حدوث «ب» أمر ضروري محتوم لا مفر منه ما دامت «أ» قد حدثت، وما دام الاثنتان قد شوهدتا متلازمتين دائما فيما مضى، وكثيرا ما يخطئ المرء في توقعه هذا؛ فقد يزورني صديق يوم الجمعة كل أسبوع، وقد يكرر ذلك ألف مرة، حتى إذا ما جاء يوم الجمعة توقعت على ترجيح شديد أن يزورني هذا الصديق على عادته،

مصدر المعرفة عند التجريبيين

وننتقل الآن إلى تحليل فكرة هامة أخرى من أفكارنا وهي: فكرة «العنصر» أو «الجوهر» لنرى إن كانت هي الأخرى فكرة مشروعة فنقبلها أم غير مشروعة فنرفضها، وذلك على أساس المبدأ الذي أسلفناه، وهو أن الفكرة تقبل إذا أمكن ردها إلى الانطباعات

الحسية التي منها تكونت الفكرة فيما بعد. لكن ماذا نعني بالعنصر أو بالجوهر في لغة الفلسفة ؟ خذ البرتقالة مثلا؛ فكل ما تدركه منها ظاهرات حسية، كل حاسة من حواسك تدرك من البرتقالة جانبا من جوانبها؛ فالعين تدرك اللون واللسان يدرك الطعم والأنف يدرك الرائحة، وهكذا

مصدر المعرفة عند التجريبيين

الأسماء التي نطلقها لنعني بها جوهرا» أو «عنصرا خفيًا نفرض وجوده ليمسك هذه الحالات النفسية في شخص واحد أو ذات واحدة لها استمرار ودوام، فحالاتنا النفسية متتابعة لكنها منفرطة منفصلة كحبات العقد التي لا يمسكها خيط واحد، لكن الإنسان يميل إلى أن يجعل من نفسه شخصا واحدًا امتد خلال الطفولة والشباب والكهولة، نعم إن مختلف الحالات تتعاوره وتطرأ عليه من صحة ومرض ووقوف ومشي وقعود وأكل وهضم وصحو ونعاس .... إلخ إلخ، لكنه يريد لنفسه أن يكون ذاتا» واحدة مستمرة هي التي تطرأ عليها هذه الأحوال، أما هي فثابتة، وثباتها هذا هو الذي يخلع على الفرد ذاتيته، لكننا لو أخذنا بمبدأ هيوم في اكتساب المعرفة ألفينا هذه الذات» الثابتة وهما لا . ضرورة لافتراضه؛ لأنه ليس مما تأثرت به الحواس.

مصدر المعرفة عند العقليين

يقول أنصار المذهب العقلي ردا على ما يزعمه التجريبيون من أن المعرفة مصدرها الحواس إن الحواس كثير ما تخدع، فكم مرة ترى العين ما يظنه الرائي رجلا وهو ليس برجل، وكم مرة رأى المسافر عبر الصحراء ما ظنه ماء وهو سراب؟ فإن كانت الحواس مصدر معارفنا، فهذه المعارف إذن يحتمل فيها الخطأ لاحتمال أن تكون الحواس قد نقلتها على صورة مالت بصاحبها نحو الخطأ في الحكم هذا إلى أن المعرفة الآتية عن طريق الحواس تفقد الشرطين الأساسيين اللذين يجعلان المعرفة معرفة بمعنى الكلمة الصحيح، وهما الضرورة وصدق التعميم

مصدر المعرفة عند العقليين

أما عن الضرورة فنقول إنه ليس بين المعلومات الآتية إلينا عن طريق الحواس ما يتحتم أن يكون على الصورة التي أتى بها ولا أن يكون على غيرها، فها أنا ذا أرى المصباح على المنضدة، فماذا كان يمنع أن يكون على أرض الغرفة أو على أحد المقاعد ؟

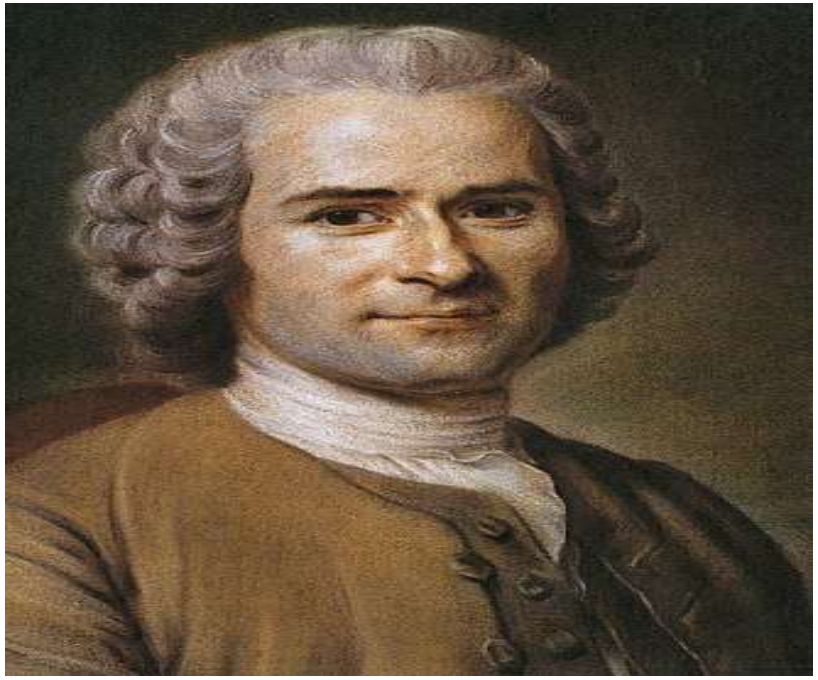

مصدر المعرفة عند العقليين

وأما الصفة الثانية التي تنقص المعرفة الحسية والتي هي شرط للمعرفة بمعناها الصحيح في رأي العقليين فهي إمكان تعميم الحكم على أفراد النوع كله تعميما لا نشك في صدقه؛ فافرض مثلا أنك قد حللت ذرة من ذرات الماء فوجدتها مركبة من جزأين من الأيدروجين وجزء من الأوكسجين، وأردت أن تعمم هذا الحكم على كل ذرة ماء أينما كانت، فلن تستطيع ذلك وأنت معتمد على الحواس وحدها؛ لأنك في هذه الحالة إنما تحكم على ذرات مائية لم تشهدها عيناك، فأنت إذن بهذا الحكم العام تجاوز مصدر الحس.

مصدر المعرفة عند العقليين

ولو وجدت في نفسك ما يبرر أن تطلق الحكم على ذرات الماء كلها، ما وقع في خبرتك الحسية منها وما لم يقع، فلن يكون هذا المبرر معتمدًا على الحواس، بل لا بد أن يكون هنالك عامل آخر إلى جانب الحواس هو الذي يؤيدني في إطلاق الحكم على بقية أفراد النوع الذي خبرت بعض أفراده، وذلك العامل الآخر هو العقل.

فإذا قارنت بين التجريبيين والعقليين من حيث نوع المعرفة التي يعترفون بها؛ وجدت أنه بينما التجريبيون لا يقبلون إلا معرفة جاءت عن طريق الحواس، حتى إنهم ليعدون الفكرة التي لا يمكن ردها أو رد عناصرها إلى أصولها الأولى من انطباعات حسية فكرة باطلة، ترى العقليين لا يرفضون ما تجيء به الحواس من معلومات، غاية ما في الأمر أنها معلومات لا يُقطع بيقينها؛ إذ تنقصها صفتا الضرورة والتعميم، وإذن فلا بد من مصدر آخر، هو الذي تركن إليه إذا أردنا معرفة صدقها، ضروري وشامل.

مصدر المعرفة عند العقليين

ينهج ديكارت» منهجًا من الشك عُرف بعد ذلك باسمه فيقال عنه: الشك الديكارتي فلكي يبني فلسفته على أساس متين قرر أن يشك في صدق معلوماته التي كان قد حصلها ما دام الشك فيها له ما يبرره. ويبدأ بالشك في الحواس وما تجيء به ويسأل نفسه ساعتئذ أبي مستطاعي أن أشك بأنني الآن جالس إلى جانب النار ومتدثرًا بعطافي؟ ثم يجيب نفسه قائلا : نعم لأنه قد حدث في أحيانًا أن رأيتني في الحلم جالسا هكذا إلى جوار النار متدثرا، مع أنني في حقيقة الأمر الواقع كنت عندئذ ماريا في مخدعي، فضلا عن أن حالات الجنون تصحبها الأوهام أحيانًا، ومن الجائز أن أكون الآن في حالة من هذه الحالات.

مصدر المعرفة عند العقليين

وعلى الرغم من أن علومًا كالحساب والهندسة أكثر يقينا من العلوم الطبيعية، إلا أن الشك فيها ممكن فقد يكون الله قد أراد لي أن أخطئ كلما حاولت أن أعد أضلاع المربع أو أن أجمع اثنين إلى ثلاثة، فإذا قيل إن مثل هذه الإرادة المضللة مستحيلة على الله، أفلا يجوز أن يكون هنالك شيطان شرير قادر على الخداع والتضليل، فيضلني عن طريق الصواب ؟ فإن فرضنا وجود شيطان كهذا كان من الجائز أن يكون كل ما أراه أوهام باطلة.

مصدر المعرفة عند العقليين

ولعلك تلاحظ أن ديكارت قد سار في رأيه عن مصدر المعرفة ومدى يقينها في خطوتين: إحداهما تهدم والثانية تبني، لكنه كان أقوى في جانب الهدم منه في جانب البناء؛ فلئن كان في المرحلة الأولى - مرحلة الشك. فيلسوفا ثائرا على تقبل الناس في العصور الوسطى لأفكارهم تقبل التسليم، فقد عاد في المرحلة الثانية فانتكس إلى إيمان العصور الوسطى

مصدر المعرفة عند النقديين

رأينا التجريبيين والعقليين يختلفون على مصدر المعرفة أهو الحواس وحدها كما يقول الفريق الأول أم هو العقل كما يقول الفريق الثاني؟ كأنما اختيارنا لا بد أن يقع على إحدى الوسيلتين دون الأخرى، وكأنما هو محال على الوسيلتين أن تجتمعا معا في تحصيل المعرفة، فجاء «كانت» بمذهبه النقدي ليقرر أن المعرفة لا تتم إلا بالخبرة الحسية والمبادئ العقلية معا.

والمقصود بكلمة «النقد» حين تُسْتَعمل في وصف فلسفة بأنها «نقدية» هو تحليل الأحكام التي نطلقها على الأشياء - أو إن شئت فقُل هو تحليل المعرفة - تحليلا ينتهي بنا إلى استخراج الأصول الصورية التي لا بد من افتراضها لكي نطلق ما أطلقنا من أحكام أعني لا بد من افتراضها لكي نعرف ما نعرف؛

مصدر المعرفة عند النقديين

والفيلسوف النقدي - إذ يستعرض أحكامنا ويحللها على هذا النحو الذي يستخرج به تلك الأصول المنطقية - يحاول أن يرد هذه الأصول إلى أقل عدد ممكن هي التي تكون - في رأيه - الصور الأولى التي تُملأ بالمعارف المختلفة، وهذه الصور أو هذه الإطارات التي تصب فيها خبراتنا تُسمى في الفلسفة بـ «المقولات»؛ فقولي - مثلا: «إن المنزل قد أحرقته النار وقولي: «إن الرجل قد قتله الرصاص. هما قولان من مقولة» واحدة على الرغم من اختلاف العبارتين اختلافا بعيدًا في مادة معناهما؛ لأن الصورة في كل منهما هي نفسها الصورة في الأخرى، وهذه الصورة أو هذا الإطار أو هذا القالب المشترك بينهما هو أن أن سبب «ب». وإذن فهذان القولان وكل قول آخر يشبههما إنما ترتد كلها إلى مقولة واحدة هي مقولة السببية؛ فالسؤال الذي يلقيه الفيلسوف النقدي على نفسه ويحاول الإجابة عنه هو: ما هي المقولات التي ترتد إليها أحكام الناس البادية في كلامهم مهما اختلفت هذه الأحكام في مضمونها ؟

مصدر المعرفة عند النقديين

ولكي نفهم رأي كانت الذي انتهى إليه لا بد أولاً من فهم التفرقة التي فرق بها بين أنواع القضايا؛ أي بين أنواع العبارات اللغوية التي نعبر بها عن أفكارنا، فجعلها من حيث نقلها للمعلومات نوعين فقضايا إخبارية وأخرى تكرارية، ثم قسمها مرة أخرى من حيث كونها قبل الخبرة الحسية أو بعدها إلى قسمين فقضايا قبلية وأخرى بعدية.

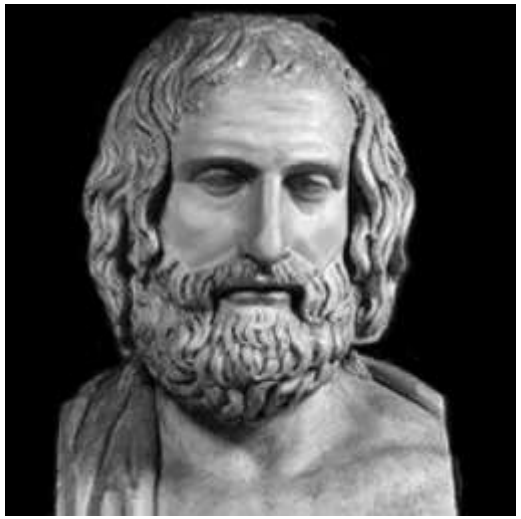

أما التقسيم الأول الذي يقسم الأحكام إلى ما هو تكراري وما هو إخباري فشرحه كما يأتي:

مصدر المعرفة عند النقديين

الجملة تكون تكرارية إذا كان الخبر الذي جاءت لتخبر به هو نفسه جزء من الموضوع الذي تتحدث عنه الجملة وتخبر عنه. ونضع هذا المعنى بلغة المنطق فنقول: إن القضية التكرارية هي التي يكون فيها المحمول جزءًا من الموضوع، فمثلاً إذا قلت لك: إن المصباح المضي مصباح»

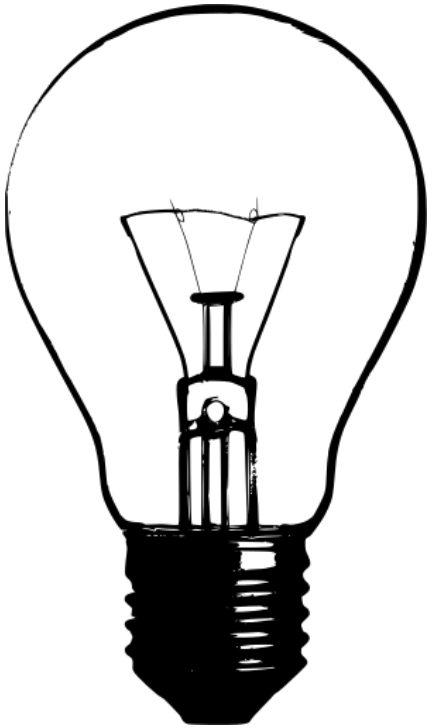

مصدر المعرفة عند النقديين

وأما الجملة الإخبارية فهي التي تضيف خبرًا جديدًا يُقال عن موضوع الحديث بحيث إذا عرفت هذا الموضوع جاء التعريف خاليا من ذلك الخبر الجديد، وكل معرفة تجيء عن طريق الخبرة الحسية هي من هذا القبيل، فلو قلتُ مثلا كان السبت الماضي تسمى أحيانا قضايا تركيبية. تسمى أحياناً قضايا تحليلية.

مصدر المعرفة عند النقديين

وننتقل الآن إلى التقسيم الثاني لأحكامنا إلى ما هو قبل الخبرة وما هو بعدها، أو بالعبارة الاصطلاحية في الفلسفة إلى ما هو «قبلي» وما هو «بعدي».

فالقضية البعدية - أو إن شئت فقل عنها القضية الخبرية أو التجريبية - لا نصل إليها إلا بعد إدراك حسي نقوم به نحن بأنفسنا أو يقوم به من نثق بشهادته، وكل حقائق التاريخ والجغرافيا هي من هذا القبيل؛ فكيف تعرف أن جبال الهملايا ارتفاعها كذا إلا إذا أدركتها بحواسك أو أدركها من تثق بشهادته؟ وكيف تعرف أن نابليون جاء إلى مصر سنة ١٧٩٨ إلا إذا كان شاهد قد شهد ذلك بحواسه وأثبت شهادته هذه؛ فصدقت أنت شهادة الشاهد. وكذلك قُل في كل قوانين العلوم الطبيعية، فهذه القوانين لا يمكن الوصول إليها إلا بعد ملاحظة وتجربة للأشياء التي صيغت القوانين الطبيعية عنها، فكون الماء يتركب من أوكسجين وأيدروجين بالنسبة الفلانية يحتاج إلى تجربة في المخابير ألاحظها

مصدر المعرفة عند النقديين

وأما القضية «القبلية» فشأنها مختلف؛ لأنها لا تعتمد على الخبرة الحسية؛ مثل قولي: ٢ + ٢ - ٤ ، فحتى لو وصلت إلى هذه الحقيقة بادئ الأمر بالنظر إلى برتقالتين وبرتقالتين، أو قلمين وقلمين كما يفعل المدرس في تعليم الأطفال، فإنني بعد أن أجرد المعنى من البرتقال والأقلام وغيرها، فإني أدرك أن صدقه لا يتوقف على خبرة حسية، ولا أتطلب بعد ذلك أمثلة من دنيا الواقع لتأييده؛ لأنني أدرك فيه يقينا لا يتطرق إليه الشك، وكل قضايا الرياضة من هذا القبيل.

مصدر المعرفة عند النقديين

هذه هي مشكلة المعرفة كما صاغها كانت» ثم حاول حلها؛ فالمشكلة عنده هي أننا في كل القوانين العلمية ـ في الرياضة وفي العلوم الطبيعية على السواء ـ إنما نعمم القول على نحو يجعله إخباريًا وقبليا في آن واحد. والسؤال هو: كيف أمكن هذا الجمع بين الجانب الخبري وبين الجانب الذي يسبق الخبرة بحيث يتكون من الجانبين حكم واحد ؟

الجواب عند «كانت» هو أن جانبًا يأتي من الخارج، وهو جانب الخبرة الحسية تأتينا منبعثة من الأشياء، لكنها إذ تأتي لا تجد نفسها بغير ضابط يضبطها، بل يتلقاها في العقل إطار ينظمها في حدوده؛ ومن ثم يكون كل جزء من معرفتنا معتمدًا في مضمونه على خبرة الحواس وفي قالبه على نظرة العقل في طريقة الإدراك، وهكذا يكون كل جزء من معرفتنا حسيًا وعقليًا، إخباريًا وماديا، في آن واحد. وفيما يلي شيء من التفصيل في توضيح ذلك

مصدر المعرفة عند النقديين

ومن هذا يتضح أن «كانت قد وقف بمذهبه هذا بين الواقعية والمثالية؛ لأنه من ناحية اعترف بالإحساسات التي تأتي إلينا من الخارج كمادة أولية للمعرفة، ولكنه من ناحية أخرى قرر فاعلية العقل واشتراكه في صياغة تلك الإحساسات في مدركات حسية....

مصدر المعرفة عند المتصوفة

وسيلة المعرفة عند التجريبيين هي الحواس، ووسيلتها عند العقليين هي العقل، وعند النقديين وسيلتها هي الحواس والعقل معا، أما المتصوفة فمن رأيهم أن الحق المطلق وهو الله - لا تكون الوسيلة إلى معرفته في الحواس أو العقل أو الحواس والعقل معا، بل تكون الوسيلة إلى معرفته هي الحدس أو العيان المباشر أو البصيرة، فكل هذه ألفاظ تسمى بها وسيلة المعرفة حين يمتزج الشخص العارف بالشيء المعروف، بحيث لا تكون هنالك تفرقة بين الذات من جهة والموضوع من جهة أخرى،

مصدر المعرفة عند المتصوفة

والمتصوفة على اختلافهم يتفقون على نقط هامة حتى تعد هذه النقط من أخص خصائص التصوف باعتباره طريقة للمعرفة؛ فهم فوق اتفاقهم جميعا على أن الحدس هو وسيلة الإدراك التي يركن إليها، تراهم كذلك يتفقون على أن الحقيقة التي يدركها الإنسان بحدسه ليست مما يمكن التعبير عنه بكلمات؛ لأنه في هذه الحالة يندمج في موضوع إدراكه اندماجا يجعلهما شيئًا واحدًا، وأما الكلمات فهي وصف يحوم حول الموضوع ولا يصل أبدا إلى قلبه ولبابه، وإن شئت فقارن بين حالتين: حالة قراءتك لكلمات تصف الحب بين عاشقين

مصدر المعرفة عند المتصوفة

وسنضرب لك مثلا للمتصوف الإمام الغزالي الذي انتهى إلى ما انتهى إليه بعد أزمة نفسية حادة، وبعد استعراضه لما يقوله مفكرو عصره من متكلمين وفلاسفة حتى يطمئن إلى أن خروجه عليهم قائم على أساس صحيح.

تشكك الغزالي في شهادة الحواس، فهي - في رأيه - لا تصلح أداة يركن إليها في تحصيل المعرفة الصحيحة، فهل تستطيع العين أن تدرك حركة الظل؟ إذن فهنالك من الحقائق ما لا يمكن إدراكه بحواسنا، ثم انظر كيف إذا وضعت أمام عينك قطعة من النقود بحيث تقع بين العين وبين نجم في السماء، رأيت قطعة من النقود تغطي النجم كله هي أكبر منه. وإذن فلا يقتصر الأمر على عجز الحواس عن إدراك بعض الحقائق كأنما بل إنها لتوهمنا بالخطأ على أنه الصواب.

مصدر المعرفة عند المتصوفين

وكذلك تشكك الغزالي في أحكام العقل نفسه، وحسبك أن تأخذ مبدأ واحدا من مبادئه الأولية التي يقال إنها قوانين الفكر العقلي، والتي نقبلها بالتسليم الذي لا يحيط به شيء من الشك، وهو مبدأ عدم التناقض، فعند العقل أنه يستحيل على الشيء أن يكون والا يكون في وقت واحد، ولكن أيستحيل حقا على الشيء أن يكون وألا يكون؟ إنه لا استحالة في ذلك،

مصدر المعرفة عند المتصوفة

وبعد تشككه في الحواس وفي العقل يسأل قائلا: ألا تكون هنالك وسيلة فوق العقل تبين مواضع خطئه وتدل على بطلانه، كما أن العقل نفسه فوق الحواس يبين خطأها ويدل على بطلانها ؟ ويجيب بأن نعم، وأن تلك الوسيلة التي هي فوق العقل والحواس معا هي الحدس.

وهو لا يرسل القول إرسالا بغير بحث، بل يتناول الجماعات الفكرية في عصره ممن كانوا يستندون في تفكيرهم إلى البراهين العقلية كالمتكلمين والفلاسفة؛ ليحلل ما كانوا يفعلونه ويبين أنه طريق لا يؤدي إلى شيء.

مصدر المعرفة عند المتصوفة

فأما المتكلمون فجماعة تسلم بما جاء به الدين من نصوص، وكل ما عليها هو أن تستخلص من هذه الأصول المسلّم بها ما يمكن استخلاصه من نتائج منطقية؛ وإذن

فأقصى ما يمكن أن يبلغوه هو أن يبينوا للمخطئ في فهم تلك الأصول الدينية خطأه؛ بأن يدلُّوه على مواضع انحرافه في استدلال النتائج من المقدمات المسلم بها، لكن لنفرض أن شاكا قد تشكك في صدق المقدمات نفسها، فعندئذ لا تكون أمام المتكلمين حيلة فيه؛ لأنه خرج على النطاق الذي ألزموا أنفسهم بالتحرك في حدوده؛ وبذلك يصبح منطقهم العقلي كله لا غناء فيه لرجل - كالإمام الغزالي نفسه أخذه القلق حينًا: كيف يستطيع أن. يقيم إيمانه بالله على أساس يطمئن إليه.

مصدر المعرفة عند المتصوفة

وأما الفلاسفة فهم كذلك فريق من المفكرين أراد أن يستخدم منطق العقل في البرهنة على وجود الله، فما معنى «برهان»؟ معناه أن تجد للقضية التي تريد إقامة البرهان

على صدقها قضية أخرى أعم منها، وتكون لها بمثابة المقدمة التي يلزم عنها بالضرورة تلك القضية المراد إقامة البرهان عليها؛ فمثلا إذا أردت البرهان على أن فردا من الناس سيلحق به الموت، كان البرهان هو القضية الأعم الأشمل، وهي أن كل إنسان سيلحق به الموت، وما دام الأمر كذلك فكيف يمكن أن تقيم البرهان العقلي على وجود الله إذا لم يكن هنالك ما هو أعم منه ولا أشمل ؟ إقامة البرهان تكون بإيجاد المقدمات التي تنتج النتيجة المطلوب إقامة البرهان عليها، والله ليس نتيجة لمقدمات سبقته وإذن فالبرهان العقلي على وجوده محال.

مصدر المعرفة عند المتصوفة

هذا إلى أن الفلاسفة في محاولة البرهنة على وجود الله يلجئون إلى ما يسمونه علة أولى، وشرح ذلك أنهم يسلمون أولاً بمبدأ السببية بين الأشياء والحوادث، أي أنهم يسلمون

أولا بأن لكل شيء سببًا، فإذا أخذت شيئًا ما كوجود فرد معين من الناس، وسألت نفسك: ماذا سبب وجوده؟ ثم ماذا كان سببا في السبب ؟ وهكذا، فإنك تعود بسلسلة الأسباب حلقة وراء حلقة حتى تنتهي حتمًا إلى سبب أول هو الله وعندهم أن ذلك برهان كاف على وجود الله؛ لأنك لا تستطيع بعد ذلك أن تسأل قائلا : وما السبب في وجود الله؟ ذلك لأنك لو فعلت ذلك فستمضي في سلسلة لا تنتهي أبدًا، وهذا - في رأيهم - موقف لا يقره العقل، فلا بد من الوقوف عند حلقة أولى تكون هي العلة الأولى لكل شيء بعدها، ولا تكون هي نفسها معلولة لشيء قبلها، وهذه العلة هي الله.

مصدر المعرفة عند المتصوفة

ويجعل المتصوفة الحواس والعقل والحدس ثلاث درجات تتفاوت صعودًا من حيث درجة يقين المعرفة التي تأتي عن طريقها؛ فالمعرفة عن طريق الحواس أدناها مرتبة والمعرفة عن طريق العقل وسطاها، والمعرفة عن طريق الحدس أعلاها، وفيها يكون اليقين الكامل المعرفة عن طريق الحواس هي معرفة العامة التي تستند إلى المشاهدة الحسية الجزئية يقومون بها هم بأنفسهم أو ينبئهم بها مَنْ يثقون في صدقه. والمعرفة عن طريق العقل مرحلة أعلى؛ لأنها تقوم على الاستدلال الذي تلزم فيه النتيجة عن مقدماتها لزوما ضروريا؛ فعندئذ لا تتعرض النتيجة لكل ما تتعرض له المشاهدة الحسية من خطأ، وأمام المعرفة عن طريق الحدس فهي الحق يشهده العارفون مباشرة بغير حجاب.

إمكان المعرفة و حدودها

الاعتقاديون و الشكاك :

سنطرح على أنفسنا الآن سؤالاً ثالثا وأخيرًا عن المعرفة هو ما حدودها؟ ما هو المدى الذي يستطيع الإنسان أن يبلغه بعلمه لو مكنته ظروف التحصيل ؟ وأول ما يرد على أذهاننا من محاولات الفلاسفة في الإجابة عن هذا السؤال - إجابة صريحة أو متضمنة - أن ثمة فريقين يقفان أحدهما من الآخر موقف النقيض من نقيضه، فهنالك الاعتقاديون» الذين يرون أن ليس للمعرفة الإنسانية نهاية تقف عندها، فإن قصر الإنسان في معرفته للكون بكل ما فيه، فما ذلك لقصور في طبيعة عقله أو في طبائع الأشياء،

الاعتقاديون والشكاك

أما «الاعتقاديون» فهم بصفة عامة أصحاب المذهبين العقلي والتجريبي على السواء لأن كلا من هذين المذهبين - قبل كانت» - كان يعتقد في مصدر المعرفة الذي يأخذ به، ثم لا يرى بعد ذلك أي مانع يمنع الإنسان من أن يستقي من ذلك المصدر علما بكل شيء، فإذا قال العقليون: إن العقل هو مصدر المعرفة؛ أي أننا نبدأ شوط المعرفة من مبادئ عقلية غير مكسوبة من خبرة الحواس، ثم نستطيع بعد ذلك أن نستولد هذه المبادئ علما كاملا بكل ما في الوجود من حق. إذا قال العقليون ذلك تضمن قولهم هذا أن ليس خارج العقل شيء يمكن أن يقف عقبة في سبيل تحصيله المعرفة كاملة. وكذلك إذا قال التجريبيون إن التجربة الحسية هي مصدر المعرفة تضمن قولهم أن ليس هنالك ما يحد من المعرفة إذا هيئت الظروف المناسبة للحواس أن تتصل بما يُراد معرفته.

الاعتقاديون والشكاك

غير أن العقليين والتجريبيين على السواء لم يطرأ ببالهم أن هذا المصدر أو ذاك مما اتخذه كل منهم أساسا للمعرفة، هو في ذاته بحاجة إلى التحليل، أي أن نقطة الابتداء ليست في الحقيقة نقطة ابتداء، بل لها ما وراءها مما قد يظهره التحليل. و«الاعتقادية» كلمة تطلق لتعني هذا الموقف كائنا مَنْ كان واقفه، وهو الموقف الذي يتخذ فيه الإنسان لعلمه نقطة ابتداء يسير بعدها دون أن يتناولها هي نفسها بالتحليل والنقد.

الاعتقاديون والشكاك

وأما الشكاك فعلى نقيض ذلك - إذ يرون أن المعرفة بمعنى العلم بالشيء كما هو في حقيقته الخارجية مستقلاً عن ذات الشخص العارف فمستحيلة؛ إذ لا يسع الإنسان أن يعرف شيئًا إلا في صلة ذلك الشيء بنفسه، ومنظورًا إليه من وجهة نظره. وحتى لو فرضنا أن في وسع الإنسان أن يعرف شيئًا ما كما هو في حقيقته الموضوعية، فليس في وسعه أن ينقل معرفته هذه إلى سواه؛ لأنها ستصبح جزءا من ذاته، وكل ما في مستطاعه إزاء الآخرين هو أن ينطق بكلمات وليست الكلمات هي نفسها المعرفة الذاتية التي عرفها

الاعتقاديون والشكاك

وسنضرب مثلا للفيلسوف الشاك بروتاجوراس» الذي أخرج كتابا أسماه «في الآلهة بدأه هكذا: «أما عن الآلهة فلا أراني على يقين من وجودهم أو عدم وجودهم، ولا من شكلهم كيف يكون؛ ذلك لأن ثمة أشياء كثيرة تعوق المعرفة اليقينية، منها غموض الموضوع وقصر حياة الإنسان. حتى ليقال: إنه اتهم بالإلحاد واضطهد من أجل ذلك ففر من أثينا.

ويصفه لنا أفلاطون في محاورة أسماها باسمه؛ إذ أسماها «بروتاجوراس»، وفي هذه المحاورة لا يقدمه أفلاطون في الصورة الجدية اللائقة به، لكنه يعود في محاورة أخرى هي محاورة «تياتيتوس» فيناقش - جادا - الرأي المشهور عن بروتاجوراس والذي يُعد محور فلسفته، وهو الرأي القائل بأن الإنسان مقياس كل شيء، فهو مقياس أن الأشياء الموجودة موجودة، وأن الأشياء غير الموجودة غير موجودة. وهو رأي يفسرونه بأنه يعني أن كل فرد من الناس هو مقياس الأشياء جميعًا،

الاعتقاديون والشكاك

إذا ما اختلف الناس على رأي ها، فليس هنالك حقيقة موضوعية يمكن الرجوع إليها لتصويب المصيب وتخطيء المخطئ.

هذا هو جوهر مذهب الشكاك جميعًا، وهو أن المعرفة نسبية لا مطلقة؛ أي تكون صوابا أو خطأ بالنسبة للشخص العارف، ويستحيل أن أجد غير الإنسان نفسه ليقيس الرأي من حيث صوابه أو خطؤه. وهذه النسبية في المعرفة تكون ظاهرة في الآراء الأخلاقية . بوجه خاص؛ فالخير خير بالنسبة للشخص الذي يقول عنه إنه خير، ولا يمنع أن يكون هذا الخير نفسه شرا بالنسبة لشخص آخر ومن وجهة نظر أخرى.

الاعتقاديون والشكاك

فالمقياس في صدق الرأي ليس هو الرجوع إلى الحقيقة الموضوعية الخارجية؛ إذ إن

ذلك في رأي هذا المذهب - محال؛ فمحال أن تنظر إلى الشيء الخارجي بغير عينيك، وأن تمسه بغير جلدك، وأن تسمع صوته بغير أذنك، أو تذوق طعمه بغير لسانك. وإذن فلا مناص من استخدام حواسك أنت في إدراك الشيء؛ وبالتالي لا مناص من جعل حقيقته قائمة على إدراكك الذاتي له مهما اختلف ذلك الإدراك من إدراك الآخرين.

وكثيرا ما يحدث هذا الاختلاف، فلن تُقنع المريض بأن الطعام ليس مُرًا كما يقول هو حكما بوقع الطعام. على لسانه، ولن تقنع المحموم بأن الأشباح التي يراها غير موجودة كما يظن.

الاعتقاديون والشكاك

وكثيرًا ما يُقال ـ خطأ ـ عن مبدأ بروتاجوراس هذا: القائل بأن الإنسان مقياس الأشياء جميعًا ـ إنه مبدأ ينتهي إلى هذه التقاليد والعقائد؛ لأن كل فرد من الناس سيذهب مذهبه دون أن تكون هنالك الحقيقة الموضوعية الواحدة التي يلتقي عندها الجميع. وواضح أن هذه النتيجة لا تلزم عن مقدمتها، بل على عكس ذلك ما قاله برو تاجوراس نفسه من أنه ما دام اتفاق الناس مستحيلا بالرجوع إلى حقيقة موضوعية لاستحالة هذا الرجوع؛ إذن فلا مناص في حياتنا العملية من الأخذ بالأنفع كما تقرره أغلبية الآراء، ولما كانت التقاليد هي التعبير عن رأي الأغلبية؛ فالأخذ بها أنفع اجتماعيا من الخروج

حدود المعرفة الممكنة عند الوضعيين والنقديين

أسلفنا لك القول في رأي المذهب النقدي متمثلاً في «كانت» من أن المعرفة وسيلتها الحواس والعقل معا: الحواس تأتي إلينا بالمادة الخامة التي هي الإحساسات المختلفة من لون وصوت إلخ، والعقل بما في فطرته من قوالب أو مقولات يصب هذه الإحساسات المتفرقة ويصوغها، فإذا هي مدركة إدراكا حسيًا بعد أن كانت شتيتا متفرقا من إحساسات، ثم من المدركات الحسية يكون العقل مدركاته العقلية، ومن هذه يكون أحكامه التي تصدق على العالم الخارجي صدقا مطلقا.

لكن إذا كانت هذه المعرفة الصادقة صدقا مطلقا في مستطاع الإنسان بواسطة حواسه وعقله معا، فلا بد أن تكون حدودها هي حدود الخبرة الحسية ما دامت هذه الخبرة شرطا لازما، ولما كانت الخبرة الحسية لا تتعلق إلا بظواهر الشيء كما تبدو للحواس؛ وجب ألا يجاوز علمنا هذه الظواهر؛ وإذن فالمعرفة اليقينية عن العالم الخارجي ممكنة على شرط ألا تجاوز حدود ظواهر الأشياء كما تتلقاها حواسنا.

حدود المعرفة عند الوضعيين والنقديين

هذه كلها متناقضات لا يمكن للعقل أن يتخلص منها؛ لأنه قد حاول أن يستخدم أداتي الزمان والمكان ومقولة السببية التي لم يزود بها إلا ليستخدمها في مجال خبراته الحسية، حاول أن يستخدمها في فهم المكان نفسه والزمان نفسه والسببية نفسها، كأن هذه الأشياء كائنات خارجة عنا ممتدة مع العالم حيث امتد، فعلى الرغم من أن كل ما نصادفه من تجارب لا يمكن فهمه إلا إذا تمت صياغته في عبارات دالة على مكان أو زمان كما تدل على العلاقة السببية بين أجزاء تلك التجارب، إلا أننا نخطئ ونقع في التناقض حين نتصور هذه الأشياء واقعا ونجعل منها موضوعا لمعرفة.

حدود المعرفة عند الوضعيين والنقديين

هكذا يجعل «كانت» للمعرفة الإنسانية الممكنة حدودًا تقف عندها، وحدودها هي حدود الخبرة الحسية؛ إذ الخبرة الحسية هي المضمون الذي ينصب في مقولات العقل فتتكون بذلك معارفنا عن العالم الخارجي، وبغير هذه الخبرة الحسية تظل مقولات العقل فارغة جوفاء بغير موضوع، كما أنه لولا مقولات العقل التي فيها تجد الخبرة الحسية شكلا وصياغة لكانت عمياء بغير معنى.

حدود المعرفة عند الوضعيين والنقديين

وللمذهب الوضعي شعبة حديثة معاصرة تسمى بالمذهب الوضعي المنطقي مؤداها أن ما يجاوز حدود الخبرة الحسية ليس هو - كما ظن أوجست كونت وكما ظن «كانت» متعذر المعرفة على الإنسان لقصور أدوات المعرفة عند الإنسان، وأنه لو كان مزودا بوسائل أخرى للمعرفة غير وسائله الحالية لجاز أن يكون في مستطاعه معرفة ذلك العالم الأسمى، بل هو مستحيل المعرفة بحكم تحليل اللغة نفسها التي يستخدمها

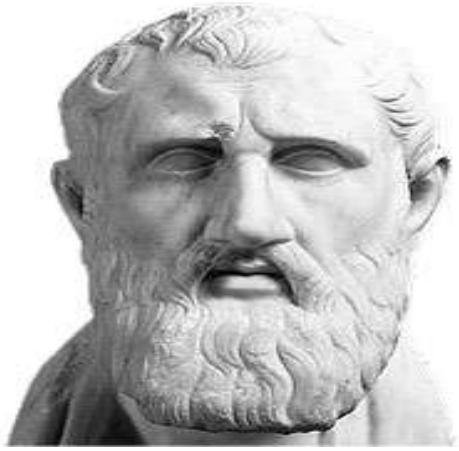

حدود المعرفة عند الوضعيين والنقديين

ولزيادة الإيضاح أضرب هذا المثل فأقول: إنه إذا صادفتنا عبارة كهذه الروح حر من قيود السببية»، وسئل النقديون» و«الوضعيون ما رأيكم في هذه العبارة؟ لقالوا إنها تتحدث بلغة العقل لأن السببية من المدركات العلمية القائمة على التحليل العقلي عما هو فوق متناول العقل وإذن فرفضهم لهذه العبارة قائم على أساس نفسي لا على أساس منطقي، أي أنهم يرونها عبارة ذات معنى وكل ما في الأمر أن العقل الإنساني لا يتطاول إلى بلوغ ذلك المعنى، وربما استطاع الإنسان بلوغه بوسيلة أخرى غير العقل

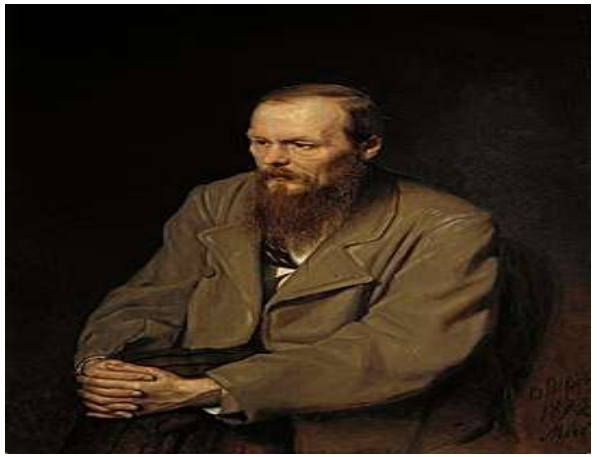

حدود المعرفة عند الوضعيين والنقديين

. أما الوضعيون المنطقيون، فإذا سألوا عن رأيهم في عبارة كهذه رفضوها لأن التحليل المنطقي لأجزائها وطريقة تركيبها يبين أنها بغير معنى، فلا يجوز قولها، لا لأنها فوق مستوى العقل، بل لأنها عبارة فارغة.

وخلاصة القول في إمكان المعرفة وحدودها هي أن العقليين» و«التجريبيين» يرون إمكانها إلى غير حد تقف عنده، وأما النقديون» و«الوضعيون، فيرمون إمكانها بشرط أن تقف عند حدود الخبرة الإنسانية، وهنالك نفر قليل من الشكاك يرون استحالة أن يعرف الإنسان معرفة يقينية عن حقيقة العالم الذي يعيش فيه.

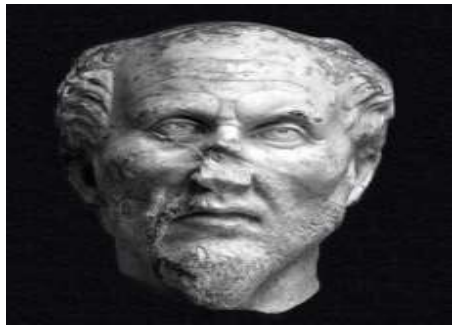

الجانب العملي

١ ـ ما المقصود بالأبستيمولوجيا؟

أ. دراسة السلوك الإنساني في المجتمع

ب. نظرية المعرفة العلمية التي تبحث في طبيعة وأصل وحدود المعرفة الإنسانية

ج. علم النفس التجريبي

د. فلسفة القيم الأخلاقية

٢ -- يرى الواقعيون أن المعرفة هي:

أ. ناتجة عن الحدس المباشر

الجانب العملي

ب. صورة مطابقة لما يجري في العالم من وقائع وأحداث

ج. نتيجة لتفاعل الفكر والعمل

د. إدراك خالص من العقل لا يعتمد على الواقع

٣ -تُعد المعرفة عند البراجماتيين (العمليين):

أ. انعكاساً للعالم الخارجي فقط

ب. خطة عملية للسلوك والعمل الناجح في الواقع

الجانب العملي

ج. مفاهيم مجردة في العقل

د. وهمًا لا علاقة له بالواقع

٤ -العقليون أن مصدر المعرفة هو:

أ. التجربة الحسية فقط

ب. الوحي الإلهي

ج. العقل الذي يوفر الضرورة والتعميم

د. التقاليد الاجتماعية

الجانب العملي

٥ ـ بحسب كانت (المذهب النقدي)، المعرفة لا تتم إلا من خلال:

أ. الحدس وحده

ب. الحواس فقط

ج. العقل فقط

د. تفاعل الحواس والعقل معًا

روابط خارجية

عنوان الفيديو	الرابط
ماهي الأبيستيمولوجيا	https://share.google/yYrrcrL3CgnSl "

المراجع

- اسم الكتاب : نظرية المعرفة د. زكي نجيب محمود

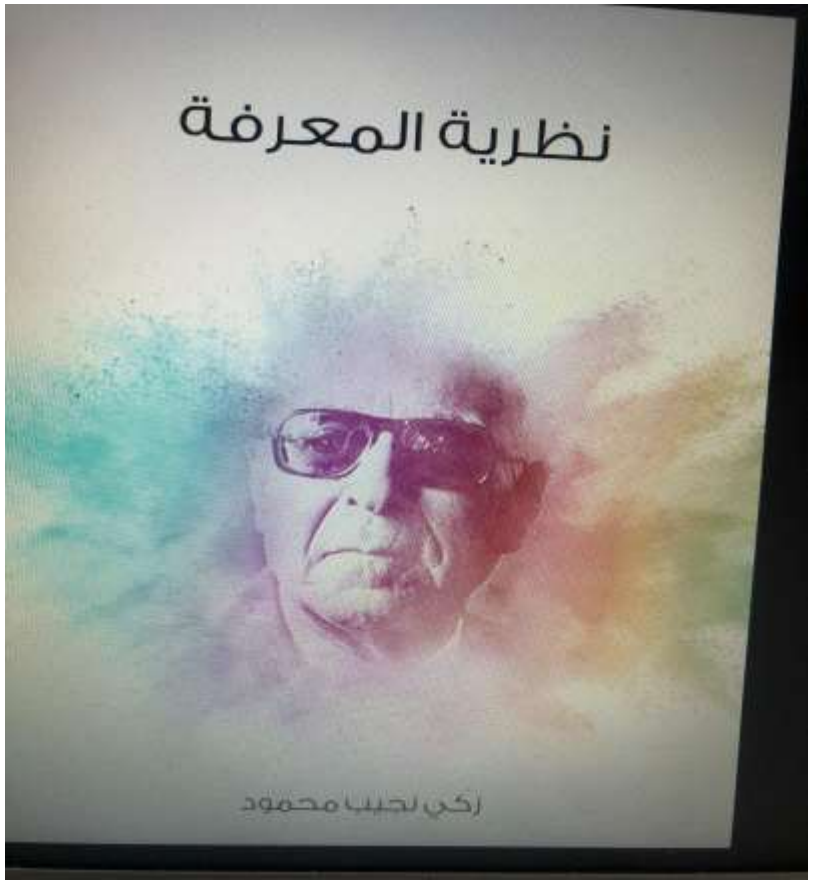

شكرا لكم